جغرافية القدس الروحية

شمس الدين الكيلاني ■

يصدر التعلق الروحي للمسلمين بالقدس عن دمجه العميق للمثلث المؤلف من مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس داخل جغرافية الإسلام الروحية المنجذبة بقوة نحو البيت العتيق، البيت الحرام، الذي يشير المعتقد الإسلامي إلى أن إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء قد بناه، ومعه ابنه إسماعيل عليه السلام. والأساس في هذا التصور أن المسجد الحرام يتبادل الموقع المركزي مع القدس (المسجد الأقصى) في وحدة عضوية ما بين تكويناتها الثلاثة؛ إذ أن هناك في المتخيل الإسلامي وحدة عميقة بين أطراف الجغرافية المقدسة الإسلامية، وهو ما عبّر عنه ماسينيون بقوله: «ما من مسلم مؤمن يقبل التنازل عن الخليل، ولا عن القدس خصوصاً، وهي ثالث الحرمين (بين مكة والمدينة)»، إن أورشليم القدس هي نقطة تلاقي الإسلام الذي وُلد في الصحراء العربية وتلاحمه مع الإنسانية العالية، إنها منطلق وبرهان في صحة مشيئة الله إلى إبراهيم عليه السلام الذي دفع محمداً ﷺ أثناء إسرائه في المعراج نحو هذا «الهيكل السحيق»، الذي كان آنئذ حسب تفكيره

■ كاتب وباحث من سورية.

«محراب زكريا، وقد أصبح فيما بعد المسجد الأقصى، كما أنه سيصبح قبلة الإسلام الأخيرة، ويحل بذلك محل مكة (الكعبة) في آخر الزمان، فلا يمكن للإسلام أن يتنازل عن الأقصى من دون التنكر للنبي»[1].

وهذا يعكس التصور الإسلامي لوحدة الأصل الإبراهيمي في الأديان السماوية الثلاثة، ولعل الاعتقاد الراسخ بتلك المنظومة الجغرافية المقدسة هو ما دفع المسلمين إلى أن يجعلوا جميع الأضرحة والأبنية المقدسة في العالم الإسلامي تحاكيها رمزياً. وقد تجلت تلك الوحدة بين مكة (المسجد الحرام)، والمدينة المنورة (المسجد النبوي)، والقدس (المسجد الأقصى)، في العديد من المعاني والرموز التي أسبغها المسلمون على تلك الأماكن المبجلة.

ولعل الإسراء والمعراج أول تجسيد لوحدة تلك المنظومة الجغرافية، فكانت بمثابة استعادة لرحلة النبي إبراهيم عليه السلام من الخليل إلى الكعبة (مكة)، ومنها إلى الخليل، حيث كانت رحلة إبراهيم إسراءً أرضياً سبقت رحلة «إسراء» النبي ﷺ من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه عرج إلى السماء، وليتمم بذلك قوس الدائرة القدسية لرحلة جدّه إبراهيم عليه السلام من الأقصى إلى البيت الحرام، برحلته المعاكسة من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة[2]. كما أنها ـ في الوقت الذي ربطت فيه ما بين رسالات التوحيد من إبراهيم عليه السلام إلى محمد ﷺ ـ قد شدت الوثاق بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد، وكأنها أرادت أن تعلن ـ حسب سيد قطب ـ بوراثة محمد لرسالات الأنبياء السابقين جميعاً[3].

وقد ذكر الإسراء في الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، ولقد اختلف المفسرون حول ما يعنيه الإسراء والمعراج، وكما قال

1 ـ يواكيم مبارك، القدس قضية، ترجمة مهاة فرح خوري، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت 1996 ص 79.

2 ـ محمد مصطفى الباش، القدس بين رؤيتين، دار قتيبة، دمشق، بيروت 1997. ص 111، 112.

3 ـ محمد محمد حسن شراب، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم 1994، دمشق ص 333.

أبو الفداء: اختلف أهل الله هل كان بجسده أم كان رؤيا صادقة، فالذي عليه الجمهور أنه كان بجسده، وذهب آخرون إلى أنه كان رؤيا صادقة. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه»، ومنهم من «جعل الإسراء إلى بيت المقدس جسدياً، ومنه إلى السموات السبع، وسدرة المنتهى روحانياً»[1].

إنّ الإسراء والمعراج أول تمثيل لوحدة تلك المنظومة الجغرافية، فكانت بمثابة استعادة لرحلة النبي إبراهيم عليه السلام من الخليل إلى الكعبة، ومنها إلى الخليل

ويروي شداد بن أوس أن النبي ﷺ وصف رحلته: «فانطلقت بنا (أي: البراق) تهوي، يضع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل، فأنزلني، فقال: صليتَ بيثرب (المدينة) وطيبة، فانطلقت بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، فقال: انزل، فنزلت، فقال: صل، فصلّيت، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد المسيح بن مريم عليه السلام، ثم انطلقت بي حتى دخلنا المدينة فأتى قبلة المسجد (المسجد الأقصى)، فربط بها الدابة، فصليت في المسجد حيث شاء الله»[2].

هكذا، ربطت هذه الرحلة (الإسراء) ما بين أطراف الجغرافية الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة والقدس، وما جاورها مثل بيت لحم التي ولد فيها عيسى بن مريم، وأيضاً ما يذّكر بالنبي موسى، وداوود كتعبير عن وحدة الوحي النبوي.

الإسراء والمعراج

تجلَّت وحدة الوحي أكثر ما تجلت في المعاني التي يذخر بها «المعراج»؛ إذ يروي ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، أنه صعد

1 ـ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر (تاريخ أبي الفداء)، الجزء الأول، بيروت، دون تاريخ، ص 119.

2 ـ شهاب الدين أبي محمود بن تميم المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيبي، دار الجيل، دون تاريخ، بيروت، ص 267.

«عارجاً إلى السماء السابعة، والتقى أثناء عروجه الأنبياء السابقين عليهم السلام، «ففي السماء الأولى التقى بآدم عليه السلام، وفي الثانية التقى بعيسى ابن مريم عليه السلام ويحيى بن زكريا، وفي الثالثة بيوسف بن يعقوب عليه السلام، وفي الرابعة بإدريس عليه السلام، وفي الخامسة بهارون بن عمران، وفي السادسة بموسى بن عمران عليه السلام، وفي السابعة، وعلى عتبة «سدرة المنتهى» «تعرف على أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام»[1]. ومما له دلالة رمزية أيضاً على هذه الوحدة ما يروى عن أن النبي صلى بالأنبياء جميعاً في المسجد الأقصى؛ أي: في قلب القدس، فعبر هذا الحدث رمزياً عن وحدة الوحي من جهة، وعن وحدة المنظومة الجغرافية المقدسة من جهة أخرى، فيروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «... ثم مضينا حتى أتينا ببيت المقدس، ونشرت لي الأنبياء من سمى الله ومن لم يسم، فصليت بهم، غير أولئك الثلاثة عيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام»[2]. وينقل السيوطي حديثاً نبوياً عن أبي حاتم، يذكر فيه أن جبريل قدّم النبي صلى الله عليه وسلم على جميع من في المسجد، «فصليت بهم، فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله»[3]، وهو ما يرفع شأن القدس من جهة، ويؤكد وحدة الوحي من جهة أخرى، وترسيخاً لفكرة أن محمد خاتم الأنبياء جميعاً، ومتمماً لرسالتهم، كما أن صعود النبي من على صعيد القدس، من فوق الصخرة التي في المسجد الأقصى، إلى سدرة المنتهى يضفي المزيد من القداسة والرفعة على المسجد، وعلى المدينة.

قِدم تاريخها الروحي وتبادل مواقعها

وتتحدد وحدة أطراف الجغرافية الروحية أيضاً في اشتراكها بصفة «القدم» في الزمان، إلى درجة أن قدسيتها تسبق زمان بنائها على أيدي

1 ـ ابن هشام، السيرة النبوية القسم الأول والثاني، تحقيق مصطفى السقا وعبد الحفيظ الشبلي، وإبراهيم الأبياري، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955، ص306 - 307.

2 ـ ابن عساكر، الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج1، تحقيق: الشيخ عبد القادر رتبة بدران، ط2، دار المسيرة، بيروت 1979، ص329.

3 ـ شراب، بيت المقدس، ص329.

البشـــر، بل إن بعض آثارها تبـــدو لبعض المســـلمين وكأنها ذات مصدر ســـماوي، حيث يجري الحديث على أصل سماوي للحجر الأسود (الكعبة)، وللصخرة الشريفة (المســـجد الأقصى)، فضلاً عن أن تبادل كل من مكة والمقدس لموقع القبلة، فبعض المرويات تتحدث عن أن المسجد الأقصى والكعبة شيدتهما الملائكة قبل أن تبنيهما يد الزمان من هنا، فإن قداسة موقعهما ســـابقة لبنائها من قبل البشـــر، أو النبيين، تروي عائشـــة عن النبـــي ﷺ قوله: «**إن مكـــة بلد عظَّمه الله، وعظَّـــم حرمته، خلق مكة وحفها بالملائكة قبل أن يخلق أي شـــيء من الأرض يومئذ كلها بألف عام ووصلها بالمدينة، ووصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقاً واحداً**»[1].

تتحدد أطراف وحدة الجغرافية الروحية في اشتراكها بصفة «القِدَم» في الزمان، إلى درجة أنّ قدسيتها تسبق زمان بنائها على أيدي البشر، بل إنّ بعض آثارها تبدو لبعض المسلمين وكأنها ذات مصدر سماوي

ومما له دلالته في هذا الســـياق حديث رواه أبو ذر الغفاري، قال: «قلت لرسول الله ﷺ: أي مســـجد وضـــع علـــى وجـــه الأرض أولاً؟ قـــال: **المســـجد الحرام**. قلـــت: ثـــم أي؟ قـــال: **بيت المقدس**. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»[2]، والحـــال أن الأربعين ســـنة هنا إنمـــا تنتمي إلى زمن قدســـي، لا يقاس بزمن الدهر، كما يشـــير هذا الفـــارق إلى قرابـــة بين المســـجد الحرام والمســـجد الأقصـــى، ولا تختلف قداســـة مكان المســـجد النبوي في المدينة وقدمـــه عن حالي المســـجد الأقصى، والمســـجد الحرام؛ إذ يروي ابن إســـحاق أن النبي ﷺ ركب ناقة، وأرخى لها الزمام، وهو يدخل المدينة في هجرته إليها، والناس تدعوه إلى النزول عندهم، فيقول لهـــم: «**خلّوا زمامها فإنها مأمورة**»؛ أي: أن هناك قوى علوية تقودها، «حتى انتهت إلى موضع مسجده اليوم، فبركت

1 ـ شهاب الدين المقدســـي، مثير الغرام، ص132، وضياء الدين المقدسي، فضائل بيت المقدس، تحقيق مطبع الحافظ، دار دمشق، دمشق 1985 ص48.

2 ـ ياقوت الجموي، معجم البلدان، ج1، جمع عبد الإله نبهان، وزارة الثقافة، دمشق، ص379 - 380.

على باب مسـجده»[1]، فكان أن أمر النبي ﷺ بعمارة مسجده هناك، وهو ما يشير إلى أن قداسة المكان سـابقة لبنائه، وأن اختياره تم بأمر علوي، كما أن إبراهيـم عليه السلام عندما بنى القواعد للمسـجد الحـرام، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقـرة: 127] فإنما بناه تبعاً للنموذج السـماوي الذي بنته الملائكة من قبل، ويذكر ابن هشـام في كتابه (التيجان): «أن آدم عليه السلام لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه، فبناه، ونسك فيه»[2]، ويذهب الإمام أبو العباس القرطبـي في تفسـيره بأنه يجـوز أن يكـون الملائكة هم الذيـن بنو بيت المقدس بعد أن بنوا البيت الحرام بإذن الله[3].

ويرى شـهاب الدين المقدسـي أن ماذهب إليه القرطبي إنما يتفق مع الآيـة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمـران: 96]، وفي المقابل فإن هنـاك الكثير من الآيات المشـيرة إلى قداسـة القدس، كالآية القائلة: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

كمـا أن بعض الروايات الإسـلامية تتحـدث عن أصل سـماوي للحجر الأسود، وللصخرة المشـرفة، يروي الغزالي عن الترمذي حديثاً نبوياً: «**إن الحجر الأسـود ياقوتة من يواقيت الجنة**»[4]، ويروى عن عبد الله بن عمر قوله: «إن الركـن والمقام من الجنـة»[5]، وفي ضوء هـذه الرؤية الرمزية للمكان المقدس، ترى الرؤية الإسلامية أيضاً أن صخرة بيت المقدس تصدر عن نموذج سـماوي مصدره الجنة، كحال الحجر الأسود، فيروي ابن عباس قول النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلـى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى**

1 ـ المصدر السابق، ص113.

2 ـ ابن هشـام، السـيرة النبوية، : ص495 - 496، وأيضاً راجع ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1961، ص396.

3 ـ شراب، بيت المقدس، ص298 - 299.

4 ـ مجير الدين الحنبلي، الأثر الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1 دون مكان، دون تاريخ، (نسخة في المكتبة الوطنية بحلب)، ص8.

5 ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المجلد الأول، دمشق 1994، ص288

بيت المقدس»، كما يروي الصحابي أنس بن مالك «أن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس، وبيت المقدس من جنة الفردوس»[1].

ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس**»[2]، فضلاً عن رواية عمر بن الخطاب: «أن الحرم محرم في السمٰوات السبع بمقداره في الأرض، وأن بيت المقدس مقدّس في السمٰوات السبع بمقداره في الأرض»[3].

لقد تواترت المرويات وتكاثرت تلك التي تشير إلى أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى لهما ما يوازيهما في السماء، وليست القدس ومكة مكانين منفصلين في المنظومة الرمزية الإسلامية

لقد تواترت المرويات وتكاثرت، تلك التي تشير إلى أن للمسجد الحرام، والمسجد الأقصى ما يوازيها في السماء، وليست القدس ومكة في المنظومة الرمزية الإسلامية مكانين منفصلين، بل صعيداً مقدساً واحداً، يؤمئ كل منهما إلى الآخر ويستبطنه، ودفعت تلك الرؤية لجغرافية المسلمين المقدسة إلى أن يذهب المفسرون إلى استخدام المعاني من الآيات القرآنية، التي تكرم تلك الأماكن وتوحدها في الآن نفسه، كالآية: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: 1 - 3] فيفسر أبو هريرة (التين) بأنه طور سينا، والزيتون يرمز إلى مسجد بيت المقدس، وهذا البلد الأمين يعني مكة المكرمة.

يذهب هذا التفسير الرمزي لوحدة الصعيد المقدس الإسلامي ذروته مع تمثل تبادل البيت الحرام والمسجد الأقصى لدور «القبلة»، فإن كانت القدس قبلتهم الأولى إلى أن نزل الوحي الإلٰهي بتوجيه المسلمين وجههم

1 ـ أبو الوليد الأزرقي محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة. ج 1 دار الثقافة، مكة، 1965، ص 325.

2 ـ شمس الدين السيوطي، إتحاف الأخِصّا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد، القسم الأول، القاهرة 1982، ص 101.

3 ـ مجيد الدين الحنبلي، الأثر الجليل بتاريخ القدس والخليل ج 1، مصدر سابق، ص 209. والسيوطي ج 1. ص 132.

صوب المسجد الحرام؛ فإن القدس تأخذ موقع القبلة في نهاية الزمان يوم النشور، يوم الحشر والنشر، فتزف الكعبة بجميع ما فيها إلى بيت المقدس، ومعها جميع مساجد الأرض[1].

ويروي كعب حديثاً: «لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس فينقادا إلى الله جميعاً، وفيهما أهلوهما، والعرض والحساب ببيت المقدس»[2]، ويعبر هذا التناقل لوظائف القبلة، وأوبة جميع المساجد في النهاية إلى بيت المقدس، عن الوحدة البدئية الجوهرية القدسية مابين المساجد الثلاثة، ومدنها.

ابتدأ المسلمون دعوتهم في أداء صلاتهم شطر (المسجد الأقصى) في القدس، يؤدون ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها على ملة إبراهيم عليه السلام، مستقبلين بيت المقدس[3]. فالقدس ـ تبعاً للاعتقاد الإسلامي ـ كانت قبلة جميع الأنبياء عليهم السلام، «فلم يبعث الله منذ هبط آدم على الأرض نبياً إلّا جعل قبلته صخرة بيت المقدس»[4]. وتشير بعض الأحاديث إلى أن النبي ﷺ كان يجمع في صلاته ما بين القبلتين، فحسب ابن عساكر «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو بمكة، نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدها هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صُرف إلى الكعبة»[5] فكانت القدس في العهد المكّي وبداية العهد المدني قبلة المسلمين، فكان النبي ﷺ يصلي في البيت الحرام، في العهد المكي ويتلو القرآن فيه، إلّا أنه أمر المسلمين بالتوجه بصلاتهم نحو القدس، ربما ليظهر تميز الإسلام عن العقائد الوثنية التي تملأ برموزها البيت الحرام، فكان توجّه المسلمين شطر القدس ـ المركز الروحي لأهل الكتاب ـ بمثابة علامة على استمرار

1 ـ السيوطي، إتحاف الأخِصّا، ج1، ص101.

2 ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان ج1، مصدر سابق، ص377 - 378.

3 ـ شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص220. وأيضاً إسحاق موسى الحسيني، عروبة القدس، مركز أبحاث منظمة التحرير، بيروت 1969، ص79.

4 ـ محمد حبش، سيرة رسول الله، دمشق 1993، ص43

5 ـ شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص214.

دين الوحي، ثم بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ظل يوجه صلاته نحو بيت المقدس، إلى أن أتاه الأمر الإلٰهي، بنقل وجهة صلاته إلى الكعبة، وذلك بالآية ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144].

ولقد وصفت أرمسترونغ هذا التغيير على أنه علامة على عودة المسلمين إلى عقيدة إبراهيم عليه السلام الأصلية قبل انقسامها نتيجة تشرذم اليهود والمسيحيين في طائفتين متناحرتين، ومثّل محاولة لاستعادة وحدة مفتقدة، يمثلها البيت الحرام، الذي أعاد بناءه إبراهيم المسلم الحق[1].

أضاف المتخيّل الإسلامي الكثير من المعاني التي تؤكد عمق الوحدة التي تربط أطراف الجغرافية الروحية الإسلامية، بعد أن أكد على جاذبيتها الروحية

وقد أضاف المتخيل الإسلامي الكثير من المعاني التي تؤكد عمق الوحدة التي تربط أطراف الجغرافية الروحية الإسلامية، بعد أن أكد على جاذبيتها الروحية، فيروي أبو هريرة عن النّبي ﷺ قوله: «**لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[2]. فقد عمّق المسلمون الصلات الوحدوية بين تلك (الأمكنة) المقدسة، كتلك التي تخيلوا وجودها ما بين عين زمزم في مكة، وعين سلوان في القدس، فرووا عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث عن وحدتهما، واتصالهما العميقين، وعن تبادل وظائفهما، وبقرابتهما الحميمة، فيروي خالد بن معدان عن النبي ﷺ قوله: «**زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة**»[3]،

1 ـ المصدر السابق، ص54، وأيضاً ابن كثير أبو الفداء الحافظ؛ البداية والنهاية ج9، مكتبة المعارف والنصر، بيروت، الرياض، 1966، ص253.

2 ـ كارين ارمسترونغ، القدس، مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة ناصر. ومحمد عناني، سطور، القاهرة، 1998، ص377.

3 ـ شرح جلال الدين السيوطي، سنن النسائي، ج2، القاهرة، دون تاريخ، ص37. قارن مع أبي عبد الله البخاري، صحيح البخاري، ج2، القاهرة 1387هـ ص324.

وانطلاقاً من هذا التصور التوحيدي ما بين سلوان وزمزم، ومن ورائهما القدس ومكة، يقول أبو العلاء المعري:

وبعين سلوان التي في قدسها طعم يوهم أنه من زمزم

وعن زوجة الإمام أحمد بن حنبل أم عبد الله: «من أتى بيت المقدس فليأت محراب داوود، فليصل به وليسبح في عين سلوان، فإنها من الجنة»[1]. ويذهب المخيال الرمزي الإسلامي في تصوره للوحدة ما بين بيت المقدس والبيت الحرام إلى أن «سفينة نوح عليه السلام طافت بالبيت الحرام أسبوعاً، ثم طافت ببيت المقدس أسبوعاً ثم استقرت على الجودي»[2].

وبيت المقدس هو أحد البيوت المقدسة الثلاثة عند المسلمين، التي يتضاعف فيها أجر الصلاة، وهو ما يرويه أبو الدرداء أن الرسول ﷺ قال: «**الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة**»[3]، وأيضاً هو أحد المساجد الثلاثة التي تحرسها الملائكة، وهو ما يتحدث عنه علقمة عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لله أملاك: ملك موكّل بالكعبة، وملك موكّل بمسجدي، وملك موكّل في المسجد الأقصى**»[4].

رموز إجلال القدس:

لم يبدل نقل اتجاه قبلة المسلمين عن القدس إلى مكة من مكانه القدس وقلبها الروحي (المسجد الأقصى) في الضمير الديني الإسلامي، بل رأى التصور الإسلامي ان «القبلة» ستعود إليها في نهاية الزمان، الذي بنته ـ تبعاً لحديث مسند إلى ابن عباس ـ «الأنبياء، ما فيه من

1 ـ شراب، بيت المقدس، ص 171.

2 ـ ابن الجوزي أبو الفرج بن علي، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت 1979، ص 79.

3 ـ السيوطي، إتحاف الأخِصّا، ص 337.

4 ـ شراب ـ بيت المقدس، ص 337.

موضع شبر إلّا وقد صلى فيه نبي أو أقام فيه ملك»[1]، والمسجد الأقصى، كما يذكر (الحديث) أحد ثلاثة بيوت مقدسة تُشدُّ إليها الرحال.

وأحياناً نجد بعض المرويات الإسلامية ترفع من شأن إجلال القدس، لتتقدم على المدينة المنورة، رغم الترتيب الثالث لبيت المقدس في المنظومة الجغرافية الروحية الإسلامية، فعن عمران بن حصين: «قلت يا رسول الله ما أحسن المدينة؟ قال: **كيف لو رأيت بيت المقدس؟** فقلت: أهو أحسن؟ فقال النبي ﷺ: **وكيف لا، وكل ما فيها يزار ويزور، وتُهدي إليه الأرواح ولا يهدي روح ببيت المقدس إلّا إلى الله، الذي أكرم المدينة** (يثرب) **وطيّبها بي، وأنا فيها حي، وأنا فيها ميت، ولولا ذلك ما هاجرت من مكة، فإني ما رأيت القمر في بلد قط إلا وهو بمكة أحسن**»[2].

بعض الأحيان نجد بعض المرويات الإسلامية ترفع من شأن إجلال القدس، لتتقدم على المدينة المنورة، رغم الترتيب الثالث لبيت المقدس في المنظومة الجغرافية الروحية الإسلامية

وقد ذاعت في الأدب الشعبي الإسلامي رؤية مسيانية تبشر بعودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان في القدس، وقضائه على المسيح الدجال، أو الأعور الدجال، وقد استندت هذه (البشارة) على جملة من الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، تجعل من القدس أرضاً للمحشر والمنشر، فلقد روى الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه عن ميمونة مولاة الرسول: أن النبي ﷺ لما قيل له: أفتنا في بيت المقدس، قال: «**أرض المحشر والمنشر، ائتموه فصلوا فيه؛ فإن الصلاة فيه كألف صلاة**»[3]. وروي أن الصحابي عبادة بن الصامت (ت 34هـ/654م) قام على سور بيت المقدس الشرقي بعد الفتح العمري، فبكى، فسأله بعضهم «ما يبكيك يا أبا

1 ـ الإمام أحمد بن حنبل، المسند ج 4، القاهرة 1317هـ، ص 67.
2 ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان. مجلد1، ص 379.
3 ـ سنن النسائي، مصدر سابق، ص 34.

الوليد؟ قال: من هنا أخبرني النبي ﷺ أنه رأى جهنم»[1]. وتحضر هذه المعاني نفسها عند تأويلهم لبعض الآيات القرآنية، كتفسيرهم للآية: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41] بأن المنادي هو إسرافيل، ينادي من بيت المقدس بالحشر، وهو (أي: بيت المقدس) وسط الأرض[2]. وعن عبد الله بن عمر (ت65هـ/684م) قال: «إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: 13] هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه الرحمة؛ أي: المسجد، وظاهره قبله العذاب: وادي جهنم»[3].

ثم تكتمل هذه الصورة بحزمة من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ تركز على قيامة المسيح عليه السلام في القدس، حيث يجتمع المسلمون هناك، ويكون المسيح عليه السلام إمامهم، يبادر فيقتل الدجال الذي يسانده سبعون ألفاً من اليهود، وهو ما يتجلى في رواية أم شريك بنت أبي العكر، التي تسأل النبي: «يا رسول الله، أين المسلمون (آنذاك)؟ قال: «**ببيت المقدس، وإمام المسلمين يومئذ رجل صالح، فإذا كبر ودخل في الصلاة نزل عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا رآه الرجل (الصالح) عرفه فيرجع يستقدم عيسى عليه السلام وراءه، فيضع عيسى يده بين كتفيه. ثم يقول له: تقدّم فصلّ، فإنها لك أقيمت، فيصلّي بهم. فإذا انصرف، قال عيسى عليه السلام: افتحوا الباب، فيفتحونه ووراءه الدجال، ومعه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سلاح وسيف، فإذا نظر إلى عيسى عليه السلام ذاب كما يذوب الرصاص في النار، وكما يذوب الملح في الماء، ثم يخرج هارباً، فيقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لا تفوتني بها، فيدركه عند باب الله الشرقي فيقتله**»[4]، فيملأ المسيح بعدها الأرض عدلاً بعد أن مُلئت

1 ـ شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص219، قارن الباش، القدس بين رؤيتين، ص116.

2 ـ المصدر السابق، شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص146. وأيضاً ضياء الدين المقدسي، ص44، 45.

3 ـ المصدر السابق، شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص74.

4 ـ المصدر السابق، ص74.

جوراً، «فترتفع الشحناء والبغضاء والتباغن»، حتى تلقى الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم فلا يأكلها، ويملأ الأرض من السلم»[1]. فضلاً عن ذلك فإن الإقامة في القدس ـ بحد ذاتها ـ تكتسب في المرويات الإسلامية رمزية مقدسة، فيروي الإمام أحمد بن حنبل عن ذي الأصابع، قال: «قلت: يا رسول الله، إن ابتلينا بعدك بالبقاء، أين تأمرنا؟ قال: **عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشأ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون**»[2]. بل ذهب البعض إلى تحبيذ البدء بالحج إلى بيت الحرام انطلاقا من بيت المقدس، ففي حديث رواه أبو داود وابن ماجه: «من أهّل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر»[3].

وهناك الكثير من المرويات الإسلامية التي ترسّخ في المتخيل الإسلامي الرفع من جلال القدس في الضمير الإسلامي، كاقتران ذكر بعض الأنبياء بجغرافية القدس، فانطلاقاً من القصص القرآنية يتحدثون عن «أن موسى عليه السلام كلّم الله في أرض بيت المقدس، وتاب الله على داود وسليمان عليهما السلام في بيت المقدس، ورد الله على سليمان عليه السلام ملكه في بيت المقدس، وبشّر الله زكريا بيحيى عليه السلام في بيت المقدس، وسخر الله لداود الجبال والطير في بيت المقدس، وكان الأنبياء عليهم السلام يقربون القرابين ببيت المقدس، وأوتيت مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ببيت المقدس، وولد فيه عيسى عليه السلام كما تعلم في المهد هناك، وأنزلت عليه المائدة في أرض بيت المقدس، وماتت مريم عليها السلام، ودفنت فيها»[4].

1 ـ ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ص 192 - 193.

2 ـ المصدر نفسه 193، وأيضاً ضياء الدين المقدسي، مصدر سابق، ص 65 - 76. وأحمد بن حنبل في مسند ج 8، مصدر سابق، ص 117. والنسائي في سننه ج 3، ص 111ـ 112.

3 ـ الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج 4، ص 67.

4 ـ الحنبلي، مصدر سابق، ص 143. وشراب، ص 337.

وقد اكتسبت أرض المسجد الأقصى ـ بما فيها الصخرة المشرفة ـ بالإسراء والمعراج، قدسية عميقة، فذكروا الكثير من المرويات تشيد بجلالة الصخرة، ولا سيما ان الصخرة كانت ـ حسب الاعتقاد الاسلامي ـ هي النقطة التي عرج منها النبي إلى سدرة المنتهى، فصارت روحنة الصخرة جزءاً من المخيال الرمزي الإسلامي.

وتأتي السردية الرمزية الإسلامية لترسخ من قداستها، فعن فُضيل بن عياض، يقول: «لما صُرفت القبلة (إلى البيت الحرام) قالت الصخرة: «إلهي لم أزل قبلة عبادك حتى إذا بعثت خير خلقك (النبي محمد ﷺ) صرفت قبلتهم عني؟ قال: أبشري، فإني واضع عليك عرشي، وحاشر إليك خلقي، وقاض عليك أمري، وناشر منك عبادي»[1].

وفي حديث مسند إلى كعب يقول: «**ما من نقطة عين عذبة إلّا ومخرجها من تحت صخرة بيت المقدس**»[2]، بل يذهب حديث إلى اعتبار الصخرة مركز العالم، ففي حديث روى مقاتل: «**صخرة بيت المقدس وسط الدنيا**»، وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ أجاب عن سؤال عبد الله بن سلام عن سبب تسمية مسجد الأقصى بالمسجد الأقصى: بـ«**لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص**»[3].

ويذهب المخيال الإسلامي، إلى رفع موقع الصخرة عن الأرض، وما هذا الارتفاع المادي إلا رمزاً لرفعتها الروحية، واقترابها الرمزي إلى السماء، فيروى عن الكلبي أن الصخرة «هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وروي عن علي بن أبي طالب، وعن ابن عباس وحذيفة: «أن المكان القريب إلى السماء هو صخرة بيت المقدس»[4].

1 ـ الحنبلي، الأُنس الجليل، ص52.
2 ـ ياقوت الحموي، مثير الغرام، ص380.
3 ـ شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص218.
4 ـ السيوطي، إتحاف الأخصى، ص93.

كما أن الصخرة اقترنت بالذاكرة الإسلامية بحدث جليل للغاية، وهو حادث (الفداء)، أو التضحية بالرغم من ذهاب أغلب المفسرين إلى أن ابن إبراهيم عليه السلام المراد بالتضحية به هو إسماعيل عليه السلام، وإن مكان التضحية يقع في مكة، فإن بعضهم الآخر رأى أن المكان الذي حدثت عليه التضحية هو الصخرة الشريفة حيث اختارها إبراهيم الخليل عليه السلام لتكون مكاناً ليضحي عليها بولده، والذي تم استبداله باللحظة الأخيرة بكبش سمين بإرادة إلٰهية، فشكل ذلك (الحدث الجليل) الأصل التكويني لعيد الأضحى المبارك عند المسلمين[1]، بتسمية ذات مغزى «العيد الكبير»، والذي يقع فيه موسم الحج، في هذا العيد تنحر فيه الخراف استعارة رمزية للحادث التأسيسي ذاك، ويذكره القرآن في الآية: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: 107].

1 ـ شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام، ص74 - 75.